ترجع جزئياً إلى حقيقة كون النص الواحد منها يشير إلى الآخر في كثير من الأحيان : فالاستشراق قبل كل شيء هو نظام للاتيان على ذكر الاعمال والمؤلفين والاستشهاد بهم . وكتاب ادوارد وليم لين عن « عادات وتقاليد المصريين المحدثين » قد قرأه واستشهد به اشخاص متفرقون مثل نرفال وفلوبير وريتشارد بورتن . كان ثقة في الموضوع واستخدام هذه الثقة كان أمراً إلزامياً لأي شخص يكتب عن الشرق أو يفكر به ، وليس مجرد مصر . عندما يقتبس نرفال فقرات بنصها الحرفي من « عادات وتقاليد المصريين المحدثين » فانه يتوخى الاستفادة من ثقة لين في الموضوع لكي تساعده على وصف المشاهد القروية في سوريا وليس في مصر ، إن الثقة المسبغة على لين والفرص المتاحة أمام الاستشهاد بكتابه على نحو مميز كما بدون تمييز كانت هناك لأن الاستشراق كان في استطاعته ان يمنح نصه ذلك النوع من التداول والرواج التوزيعي الذي اكتسبه . بيد أنه لا توجد طريقة لفهم الرواج الذي لقيه لين دون ان نفهم أيضاً الخصائص المميزة لنصه . هذا يصدق أيضاً على رينان وساسي ولامارتين وشليغل ومجموعة من الكتاب النافذين الآخرين . ويعتقد فوكو بأن النص الفردي أو المؤلف بمفرده على العموم لا يعتد به إلا قليلا جداً . بينما أجد أنا ، على الصعيد التجريبي ، بأن هذا الأمر ليس كذلك بالنسبة لقضية الاستشراق (وربما ليس في مكان آخر) . وبناء على ذلك فان تحليلاتي تستخدم قراءات متقاربة من النصوص وهدفها الكشف عن الجدلية القائمة بين النص المفرد أو الكاتب بمفرده وبين التشكيل الجماعي المعقد الذي يؤلف عمله اسهاماً فيه .

بيد أن هذا الكتاب بالرغم من اشتماله على انتقاء مسهب من الكتاب لا يزال بعيداً عن كونه تاريخاً كاملا للاستشراق أو رواية عامة لمسيرته . إنني أعي هذا النقص تمام الوعي . فالنسيج السميك لمقالة الاستشراق قد بقي على قيد الحياة ومارس عمله الوظيفي في المجتمع الغربي بسبب ثرائه وغناه : وجل ما قمت به هو وصف أجزاء من ذلك النسيج في لحظات معينة ، والاكتفاء بمجرد الايحاء بوجود كل أكبر من الأجزاء ، مفصل ومثير للاهتمام تحتشد فيه صور ونصوص وأحداث فاتنة . ولقد عزيت نفسي بالاعتقاد أن هذا الكتاب هو القسط الأول من سلسلة متتابعة ، وأمل انه يوجد هناك علماء ونقاد ممن يريدون كتابة دراسات أخرى غيره . لكن هناك مقالة عامة ما زالت تحتاج إلى من يكتبها عن الامبريالية والثقافة . ومن شأن الدراسات الأخرى أن تتعمق في تقصي الصلة بين الاستشراق وعلم التربية ، أو في دراسة الاستشراق الهولندي والايطالي والألماني والسويسري ، أو في تناول الدينامية القائمة بين البحث العلمي والكتابة المتخيلة ، أو في رصد العلاقة بين الأفكار الادارية والنظام الانضباطي الفكري . وربما كانت المهمة التي تستأثر بالجانب الأكبر من الأهمية إزاء كافة المهمات هي القيام بدراسات عن البدائل المعاصرة للاستشراق ، والتساؤل كيف يستطيع المرء أن يدرس حضارات وشعوب اخرى من منظور يسترشد بمبادئ الحرية أو لا يعتمد الكبت ويتجنب التحوير والتلاعب ، لكن يترتب على الباحث عند ذاك أن يعيد التفكير في المشكلة المعقدة بكاملها ، مشكلة المعرفة والقوة . هذه كلها مهمات يجري تركها ناقصة على نحو محرج في هذه الدراسة .

أما الملاحظة الأخيرة حول الطريقة والتي أريد ابداءها هنا ــ وربما كانت ملاحظة تنطوي على اطراء ذاتي ــ فهي أنني قد كتبت هذه الدراسة وفي ذهني عدد من جماهير القراء .